14 أكتوبر 14 OCTOBER يومية - سياسية - عامة
الخميس و الجمعة - 20 - 21 مارس 2025م - العدد 17863
www.14october.com

عقيدة الهيمنة والتفسخ في هذا الكيان

المذهبية من السيطرة الثقافية إلى التطرف السياسي

هي في وضع الانتماء من ركائز افراز صراعات الحقب في الجوانب الدينية والسياسية.

وهي في منطق القوى الصدامية من روافد الاستدعاء في مواقف المواجهات.

وحين تؤخذ كعامل من مكونات المجتمع تدخل في إطار الافكار من لها من مرجعيات التاريخ والأمة، بل التغلغل في الوعي الطائفي والمناطقي والقبلي بل هي من مستوطنات الثقافة والتي قد تصل إلى حد المقدس والتقديس والغذاء الروحي الذي يسقط على الفكر مقدرة الاستمرار في وقع لا يقبل إلا بشحن نفسي وهذا من فعل البقاء لمن هو الأقوى وآلية التحرك في دائرة صراع الوجود.

نجمي عبدالمجيد

عقلية الحرب في المذهبية من أسس حضورها حيث تتمترس خلف أفكار طاردة لكل ما يختلف معها في ايديولوجية الأرض المحروقة

صنمية الفكر في هذا الاتجاه هي المقدس الذي لا يجوز الخروج عليه وبها تمسخ هوية وحضارة الأمة

المذهبية تسعى لتقزيم الفكر المدرك وجعله عند أصغر حدود المعنى وسجنه عند درجة من الانحسار لتصبح هي الكمال الذي يعبد

تعزز المذهبية حضورها في مجتمعات تنحدر فيها درجات المعرفة في عقول العامة وتعاني من تصدع في شخصيتها

لذلك تكون الهيمنة في المذهبية الفاعل والمحرك الهادف لمد قوة الحضور في مختلف المراحل والاتجاهات وليست هي عند مناطق الوعي الديني فقط، بل تتدخل مع السياسة والثقافة والعلوم وقوانين التناحر في المجتمعات وحركة التاريخ.

وكما تخلق السياسة عبادة الفرد تسعى المذهبية لتقزيم الفكر المدرك وجعله عند أصغر حدود المعنى وسجنه عند درجة من الانحسار لتصبح هي الكمال الذي يعبد.

ومن يفتح صفحات التاريخ يدرك مساحات التلاعب في هذا الاتجاه من حروب السيطرة على العقول والأنفس وكيف وظف العنف والارهاب والتطرف كوسائل في حقوق الوجود، بل اصبح أمما لا ترى صورها إلا أن نظرت في مرايا المذهبية التي لا تخرج مقدرة انعكاس الصورة فيها عن تراكمات دموية وقوة سلاحها في تدمير الآخر لتصبح من طاعة المقدس.

تعد عقلية الحرب في المذهبية من أسس حضورها حيث تتمترس خلف افكار طاردة لكل ما يختلف معها في ايديولوجية الأرض المحروقة.

مما يطرح حول هذه الواقعة في أزمة الأمة والمجتمع في الشرق مما ظل معتملا في قانون البقاء عبر العنف نجد دولة لبنان قد عرفت لغة النار والدم واليوم نرى في عدة دول عربية إعادة نفس ثقافة المذهب والطائفة عند حدود رسمت في قلب الوطن الواحد لتخلق شعورا في الذاتية نحو الانسلاخ عن كيان المواطنة والارتهان لمن يقود مسارات السلاح نحو النفوذ.

يقول الباحث نبيل بيهم: (ان الايديولوجية الطائفية كانت مشحونة بمستوى مرتفع جداً من العنف لذا من الخطأ وراثة هذه الفترة بانها كانت عنوان السلم بارداً أم لا، بل ان فيها أسس حاضر يسعى لاهثاً إلى انجاح البدعة، المعرفة الخاطئة التي قد نساهم عن قصد أو غير قصد جميعاً في تمريرها.

ان الماضي لم يكن أقل عنفاً بل كان ذا عنف آخر فجر عنف الأمس واليوم.

الصراع دائم بديمومة وجود الوحدة التي تسمى بتعددية وهو استثنائي باستثنائية التصنيف السياسي ـ القانوني حيث انتماءاتهم المذهبية. هذا التصنيف الذي قد لا يقاس بعمر البشرية لكنه من عمر الكيانات السياسية يؤسس حقلاً سياسياً وايديولوجياً نابعاً منه ولا يترك مكاناً لايديولوجية الوطن التي تبقى وسيلة في الصراع السياسي لا غير. وما بدعة البدعة إلا التاكيد، بانزلاق آخر في الرموز، ان الكيان الوطني لا يبقى إلا ببقاء نفس التوازنات في الحقل السياسي أي ببقاء الهيمنة أو تفتيتاً للمسيطر عليهم).

صنمية الفكر في هذا الاتجاه هي المقدس الذي لا يجوز الخروج عليه وهي بهذا تمسخ هوية وحضارة الأمة.

في ظل هذا الانحسار في الرؤية فلم تكن الاحزاب السياسية التي جاءت من خلفيات اجتماعية حاملة من إرث أزمات الصراعات المذهبية في المقدس، إلا اسقاط معالمها على افكار كان من المفروض ان تصنع قوام التوحيد الوطني نجد انها شكلت قالبها حسب بيع الولاءات المذهبية والطائفة وتصعيد حدة المواجهات مع الجماهير لترتفع درجة الصدام الذي يأتي من منطلق حروب المذهب والطوائف وكأن المجتمع فقد القدرة على صنع كيان سياسي له ان لم يدُر في ذات الدائرة المغلقة على انعكاس صور الذات الاخرى.

ان العلاقات السياسية القائمة على صراعات المذاهب والطوائف غالباً ما تكون قوة مدمرة لركائز المستقبل بل هي تعود إلى نفس منطلقاتها التي خرجت منها.

فهي لا تعمل إلا لما يحفظ لها قوة حضورها في كل مساومة لذلك تجد في الحروب والصراعات الأهلية أرضية وطنها التي تمنحها دائمية التواجد في كل منعطف.

والحروب في وعي مكونات مثل هذه التصورات هي القوة الدافعة لها في وجه كل تحد لها وبها، ان الصراع يعطي منطق الاستمرارية وهي حالات مخلخلة لصلابة الأرض السياسية تخلق الشقوق التي تتسرب منها عوامل الانفجار الاجتماعي الذي يقسم الواقع إلى مساحات مدمرة وكلما تصاعدت حدة المواجهات تتعزز مكانة قادة الحروب الطائفية والمذهبية بل تسقط كل معاني الوطنية وتصبح مفردات العنف هي المعتمدة في الواقع.

في حضور هذه الحتمية تصبح القوى الظلامية هي من يسود المشهد لان لغة العنف لم تعد في تلك الأحوال مجرد تعبير عن الجهل أو العجز بل هي من مواقف يكون العنف فيها من حقوق ومطالب المرحلة التي لا ترى غير هذه اللغة.

ومن دول الشرق التي رهنت سياستها في الاتجاه المذهبي والطائفي كحالة لخلق نوعية من الانفراد لذاتية السلطة والمجتمع لن تصل إلى دائرة الانغلاق الكامل ضد أهداف ومصالح أطراف اخرى.

لانها في هذا الانزواء الأحادي الجانب عززت قاعدة الاستحواذ في كيانات اخرى تدور أغراضها في نفس ساحات صراعات المصالح.

تعزز المذهبية حضورها في مجتمعات تنحدر فيها درجات المعرفة في عقول العامة وتعاني من تصدع في شخصيتها.

والحروب المذهبية من عناصر الهوية في تعريف المجتمع عن صفاته الذاتية لان في عمق خصائص هذه المكونات الانفرادية خاصية العنف بكل أبعاده.

فهي ترى في الحرب جدلية التحرك والاستمرار والبقاء في خضم صراع الأطراف الدائم حول محور السلطة ـ السيادة.

وإقامة هذا النوع من القيادة لا يقبل بطرف آخر مشارك له وان تنازل عن بعض خصائص الانفراد فهو يضعها في زوية الافتراض المؤقت الذي لا يصبح موقفاً دائماً في ادارة لعبة المصالح بل يحق له الانقلاب عليها عند الوصول إلى نقطة الصفر هنا يجوز للاتفاق ان يتحول إلى غدر وخيانة وكل اسلوب يخدم الغرض.

ليس من السهل فصل الايديولوجية السياسية عن المذهبية والطائفية حتى وان تحصنت خلف ستار قوي من الدين.

فهي كي تصل إلى مقدرة التحكم في نفسية الفرد وامكانية المجتمع عليها ان تحافظ على القوة الفاعلة في المقدس بل ربط كل أبعادها في جوهر وفروع الدين حتى تظل عند قوة من علاقات الالتحام التي تخلق لديها مصدات قاذفة لكل محاولة اختراق، أو كسر هذا الدرع المتماسك أمام أي قوى دخيلة على كيان المذهبية والطائفية.

إن الحرب المذهبية والطائفية هي تعني صراع العصبيات النامية بهذه العناصر، واقتتالها حول السيطرة والسلطة والحكم واللعب على شعارات المساواة والديمقراطية، باسم رفض الهيمنة والغلبة، وفي نفس الوقت يكون الطلب لهما من ضمن أهداف لعبة الغاية تبرر الوسيلة، تدور المسائل عند ذات المحاور.

ثم علينا أن نلاحظ خاصية في هذه اللعبة، أن النظام السياسي لا يمكن بناؤه على ركائز المذهبية والطائفية مع توقع الأمن والسلام. مثل هذا الجانب من مجريات السياسة وعملية لبس الأقنعة حسب الأدوار، فتلك العناصر التي تعاني من الانقسام في مكوناتها بحكم منظورها المنغلق العدواني، تصبح مجهضة لكل حركة تقدم وتطور وإصلاح. بل مدمرة لما هو راهن وقائم من ثقافة وعمران واقتصاد ووعي حضاري، وهي تستهدف القتل من أجل القتل والهدم من أجل الهدم. بمعنى أنها فاقدة لعناصر الإحياء والتجديد في كيان الأمة والمجتمع، لذلك تستعيد في كل حالة مواجهة قوة الهجوم والفتك فيها ضد المغاير لها.

والصراعات السياسية هي حركة الواقع المرتبطة مع التاريخ وكلما تصاعدت قوة التناحر، أفرزت السياسة قوانين وأطراً مغايرة لما هو سائد.

وعلى ضوء هذا التفاعل الموضوعي، تتعزز مقدرة الوعي في رصد وقراءة مجريات الأمور. وتفرض لغة الحوار الذي يقود الاتجاهات المتضاربة وتخلق مصالح تستخدم فيها آليات حيث تصل إلى أعنف نوعية التدمير للطرف الآخر.

من أخطر المحاور التي تعد ركائز بناء الشخصية النفسية في مسائل صراع المذاهب والطوائف، هي الثقافة الشعبية والتي تشكل المهاد التاريخي في الذات لقيام أشكال العلاقة بكل أنواعها مع الامة والمجتمع.

تلك الثقافة التي يتكون حضورها في الوعي الفردي والجمعي عبر ميراث من تراكمات التجارب والمخيلة الحافظة له والالتصاق الروحي بكل ما أخذ عن الأجيال السابقة التي قدمت الكثير من التضحيات بما اضحت من مقدسات التواجد في هوية كل المراحل.

هنا يصبح الفرد لا يرى في الوطن أو الذاتية الوطنية إلا بما تشبع كيانه به من ذلك المنهل المعزز لقوة فرضية وجوده في هذه الحياة.

هذا يدل على أن جغرافية الوطن في هوية الفرد النفسية تمتد إلى حيث تصل شروط المذهب أو الاتصال الطائفي، وتتقلص إن تصادمت مع حواجز ثقافية ونفسية ترفضها ولا ترى في امتدادها سوى الزحف الناري الساعي لإشعال حرائق الفتن والتدمير.

لذلك وفي اطار هذا الواقع المتصدع تسقط كل رهانات الأمة الواحدة والوطن الجامع لكل أنواع الأطياف، بل نجد عند كل جماعة مذهبية أو طائفية معاني خاصة لمفاهيم جغرافية الوطن.

الأفق المذهبي، هو قوة الارتباط مع ماضي الجماعة، الذي يسحب من تلك التراكمات من وعي الذاكرة الشعبية، ليسقطه في بوتقة الأزمات والمواجهة التي تعد ثقافة العنف فيها القوة الرابطة بين العقيدة والسلاح مثل الإيمان بين المقدس والذات. إنها صلة روحية وليس من السهل إفراغها من جوف مثل هكذا كيان، هنا نجد الثقافة تعمل على تشظي الواقع، فإن كان هناك ما يرفض الالتقاء مع الأطراف الأخرى حفاظاً على الهوية في صلب العقيدة المذهبية، تصعد عند المغايرة ثقافة الاعتداء والعدائية، لأن رد فعل المضاد في ذلك الاتجاه، يكمن عند درجات من الصدام، بما يعني غياب لغة الحوار ومفردة التواصل، لأن ثقافة المهاد غرست في الذاكرة تاريخ العنف، وما فترات الحوارات القصيرة إلا من أساليب الخداع والعمل على جمع القوى للعودة إلى ساحات الحروب.

لذلك تنطلق عملية البناء السياسي في عقيدة المذهبية من محو المغاير، بل تمارس السياسة عبر العنف، وفي هذا ما يؤكد قوة الأفكار في تعاملها مع الوقائع.

إن سلاح قوة المذهبية في العقل عليه أن يملك السلاح الناري في اليد، هنا علينا إدراك قصر المسافة بين تراكم الإيديولوجية القتالية في الشعور، واتصالها بالسلاح كمقدرة فاعلة في الرد والمواجهة. وهذه حلقة مغلقة ليس من السهل كسرها، أو طردها خارج حسابات السيطرة مما بلغت في مستويات الأوجاع.

ولعل الإحساس بالقدرة على التضحية في هذا الميدان، يرفع لديها الشعور بقداسة المشهد الذي تتحول فيه الوان الدم والنار إلى روحانية في الفداء النفسي الغارس شرايينه في خلايا ذلك النبض العاطي لاستمرارية الحياة، بل هو ما يجدد العهد بين السابق والراهن في السير على نفس طريق الالتزام الأخلاقي ليس تجاه الأرض بل نحو السماء التي قدرت ما كان وما سوف يكون.

لا تخلو عقيدة أو مذهبية أو أفكار وغيرها مما يدخل في إطار المقدس والسياسي، من تفكك داخلي لأن كل هذا هو من صنع العقل البشري الذي لا يملك حق الاكتمال بما يجتهد.

ومن هذه الفجوات تمر تصورات مغايرة تدخل في جوهر تلك الاجتهادات لتصبح بعد وقت من عمق هذا الإنتاج الفكري، بل تصبح تلك الدخائل، هي الحق المطلق، لانها تعاني من عدم الاستقرار على ارضيتها. ولعل الاديان هي الأكثر إصابة بمثل هذه المجريات، حيث تعمل على دق أعمدة تساعدها على حمل أثقال الأزمات والتحديات والصراعات، وهي في هذا تسقط الكثير من الخرافات والأوهام، في نفسية أتباعها حتى تظل مالكة لأرواحهم وأجسادهم.

من هنا لا يقام المقدس إلا عبر الوهم والخرافة. كلما تعززت هذه الفرضيات في واقع الأمة توسعت دوائر الانحرافات السلوكية في اخلاقيات المجتمع حتى تصبح العقيدة هي الإدانة.

المذهبية دائماً ما تكون أقوى من الفكر السياسي، في إدارة الصراع داخل مجتمع تحكمه عقلية منطلقها المقدس؛ لأنها القوة المحركة الروحية التي تفرض حضورها على الحتمية التاريخية، حيث تظل كل الأفكار مهما بلغت من مستوى، دون منزلة التسيد لأنها تقف عند حدود الدخيل. ومن هنا نجد كل من يسلك الطريق إلى السلطة عبر صعود المذهب، لا يفكر إلا بحفظ كل طرق الحرب وإقامة عوازل نارية تكون مسافة التخاطب مع من يسعى لخلق أو قلب هذا القدر المقدس، في نوعية العلاقة بين مفهوم الدولة المدنية وحقوق المواطنة، وبين مذهبية لا ترى في طرق المتواصل مع الغير سوى الهدم.